

الشر الناعم وموت الخصوصية عند "زيجمونت باومان" Soft Evil and the Death of Privacy at Zygmunt Bauman.

جدراوي عفاف

جامعة الحاج لخضر باتنة-01-

afaf.djedraoui@yahoo.com

تاريخ النشر Publication date	تاريخ القبول Acceptance date	تاريخ التلقي Submission date
2021-06-01	2021-05-28	2021-02-24

ملخص: يروم هذا المقال إلى تسليط الضوء على مسألة "الخصوصية الإنسانية، هذه الأخيرة التي كانت في ما مضى إحدى أهم المقدسات التي لا يسمح بانتهاك حرمتها، وتفتشي أسرارها، وبالتالي فلا يتجرأ أحد على التناول عليها أو فك خصوصيتها؛ لأنّ السرية كانت ترسم حدود أرضها، ولكن مع موجة التطور التكنولوجي وبروز الثورة المعلوماتية والالكترونية التي شهدتها المجتمعات المعاصرة اليوم أدت إلى سيولة مصطلح الخصوصية وانحرافها عن مدلولاتها الأصلية، مما أدى إلى موت الخصوصية، وهذا ما يعد أبرز تجليات الشر الناعم في الحياة الراهنة. الكلمات المفتاحية: الإنسان؛ الخصوصية؛ الحداثة السائلة؛ الشر الناعم؛ التقنية.

Abstract: This article aims to shed light on the issue of "human privacy", the latter which was in the past one of the most important sanctities whose sanctity is not allowed to be violated and whose secrets are not allowed to be exposed, and therefore no one dares to insult it or decipher its privacy; Because secrecy was defining the borders of its land, but with the wave of technological development and the emergence of the information and electronic revolution that contemporary societies witnessed today, the term privacy was fluidity and its deviation from its original connotations, which led to the death of privacy, and this is what is the most prominent manifestation of the soft evil in current life.

Keywords: human; Privacy; Liquid Modernity ; Soft evil; Technology.

مقدمة:

منذ أعلن الفيلسوف الألماني "فردريك نيتشه" 1844-1900 عن فكرة "موت الإله"، وفكرة "الموت" هذه تجتاح رياحها عالم ما بعد الحداثة وتلقي بظلالها على كل مجالات الحياة الإنسانية، لذلك انبجست أفكار من قبيل "موت الإنسان" "موت الواقع" "موت المعنى" "موت الخصوصية" التي هي موضوع حديثنا.

وهذا الوضع الذي آل إليه مجتمع ما بعد الحداثة أو الحداثة السائلة بلغة "زيجمونت باومان" لم يكن ليظهر إلا بسبب موجة التقدم العلمي والتطور التكنولوجي الهائلة، ناهيك عن بروز الثورة الرقمية والمعلوماتية التي تعززت

أكثر مع هيمنة النزعة النيوليبرالية وسيادة منطق المتلازمة الاستهلاكية التي أطلقت العنان للحرية الفردية في سعيها الحثيث نحو البحث عن السعادة الآنية والمتعة الشخصية.

وفي خضم هذه التحولات التي طرأت على بنية المشهد المعاصر، فإن ذلك أدى إلى ارتفاع معدلات التسارع في التغيرات الاجتماعية خاصة في الآونة الأخيرة، وهذا راجع إلى دمج أعداد كبيرة من الناس الرقمنة في حياتهم اليومية، الأمر الذي أدى إلى غزو العقلانية الرقمية الحياة الجوانية للإنسان، وكان نتيجة ذلك فضح الأجندات الشخصية والكشف عن خصوصيتها وأسرارها، وهذا ما نسميه بالشخص الناعم. وهنا مثار الاشكال: كيف تساهم العقلانية الرقمية في تقويض الخصوصية موتها؟ وهل للإنسان دور في ذلك؟

1. التقنية وأثرها على سيكولوجية الإنسان المعاصر:

إن التحولات التي طرأت على الحياة المعاصرة توحى بانتصار العقلانية الرقمية أو العقلانية التقنوعلمية، التي حولت كل شيء إلى سلعة استهلاكية تنتهي بانتهاء صلاحيتها ونفعها وهذا ما أثر سلباً على سيكولوجية إنسان ما بعد الحداثة، وجعلته مجرد ترس في آلة ما كنة ضخمة، ويجرى التحكم فيه بإقاعها الخاص ومطالبها الخاصة، وثمرت تحول الإنسان إلى مستهلك شامل كما يقول "إريك فروم" (Erich Fromm 1900-1980) (همه الأساسى والوحيد هو أن "يملك المزيد وأن (يستخدم) أكثر (...)) والإنسان باعتباره ترساً في ما كنية الإنتاج يصبح شيئاً، ويكف عن يكون أن يكون إنساناً". (فروم، 2010، صفحة 70)

فالعيش في كنف الآلية يخفى في ذاته مآمرة العقل التقني، الذي يحاصر الإنسان من كل الجوانب، ويسلب منه إنسانيته، ويكرس لنوع من "العبودية الطوعية" التي تسمح "بإخضاع البشر لمنطق حتمي وميكانيكي، ومتخصص و"كروميتري للآلية الصناعية" إنها تفرض في قطاعات من الحياة الإنسانية ويزداد اتساعها". (موران، 2010، صفحة 13)

فتوسع التقنية وتربعها على الساحة الإنسانية، أدى إلى طمس جوهر الإنسان وردم الجانب الروحي فيه مما يخلق حالة مرضية للمجتمع المعاصر، نتيجة خضوع الإنسانية لصنم ووثن التقنية مما أدى إلى تشطي المعنى وموته وهنا يرى "زيجمونت باومان" (zygmunt Buman 1925-2017) في حوار أجري معه حول موضوع "التقنية" وأثرها في المجتمعات المعاصرة، أكد أن هنالك تغير جذري في منظومة العيش المشترك، وفي الظروف التي تُدار فيها سياسة الحياة هذه الأيام، لأن التطور التقني بات ينطوي على ما هو أكثر من مفهوم التغير والسبب في ذلك كما يراه في سوء توظيفنا للتقنية يقول: "لم نعد نوظف التقنية في سبيل إيجاد وسائل مناسبة تقود لتحقيق غايتنا، بل صرنا —وعلى العكس من قبل— نسمح لغاياتنا بأن تحددها الوسائل التقنية المتاحة، أي —بكلمات أخرى— ما غدنا

نطور التقنية بقصد إنجاز ما ينبغي إنجازه، بل صرنا ننجز ما تتيح لنا التقنية الحاضرة إنجازه" (باومان، 2017، صفحة 61)

وفي تقدير الحليل فإن التقنية اليوم لم تعد تستخدم لخدمة الإنسان بل أصبح الإنسان في خدمة التقنية فانقلبت الجدلية الهيغلية "العبد والسيد" رأساً على عقب، مما غير من طبيعة العلاقة بين الإنسان وذاته فشيئت الذات وأحكم عليها القفص الحديدي بتعبير ماكس فيبر واغتربت في عالم الصناعة يقول "ماكس هوركهايمر (Max Horkheimer 1895-1973) تيودور أدورنو (Theodor Adorno 1903-1969) في كتابها المشترك "جدل التنوير": "لقد أعطيت الإحيائية روحاً للشيء، أما الانتماء للصناعة فقد حول روح الإنسان إلى شيء". (هوركهايمر وأدورنو، 2006، صفحة 48)

والأخطر من ذلك، أن التطورات التقنية أثرت بشكل ملحوظ على مسار عيشنا، لذلك كانت نتائجها تحت مشرحة النقد دوماً، فإذا كانت الابتكارات التقنية كما يرى تُكفي لخدمة الحياة اليومية للمجتمع، فإنها اليوم تتركس لخدمة الأنظمة والتوجهات الشمولية، فهي تشكل مصدر تهديد للوجود البشري يقول: "إن التغيرات التي تأتي بها التقنية في أيامنا، هذه غدت تؤثر في أفراد المجتمع، كما باتت توفر امكانية نشوء بعض التوجهات الشمولية: أطلق أحد الأثرياء الأوليغاركيين الروس (ديميتري ايتسكوف)، مشروعه المسمى (المبادرة 2045) التي ترمي لجعل الدماغ البشري شيئاً يمكن الاستغناء عنه!!" (باومان وآخرون، 2017، صفحة 25)

فلا تكتفي قوة التكنولوجيا في تحول العالم والإنسان إلى مجرد مادة استعمالية، بل تتجاوز الإنسان وتحل محله الآلة، وعليه فإن النظام التكنولوجي الجديد يعمل على القضاء على العقل البشري، وجعله في مأزق داخل ما يعيشه، وهذا ما أثبتته "يورغن هابرماس" (Habermas 1929) في دراسة له حول موضوع التقنية والعلم يقول: "إن قوة المحرر للتكنولوجيا تحول الأشياء إلى أدوات تنقلب إلى قيد على التحرر وتحول الإنسان إلى أداة." (هابرماس، 2003، صفحة 5)

ومن هذا المنطلق يُدِينُ "باومان" العقل الغربي، ويوجه له سهام النقد كونه حوسل العالم بمصطلح "عبد الوهاب المسيري"، وجعل الذات تتخبط في درج الآداتية، وخاصة لما أدى به الأمر إلى طمس البعد الروحي للأنا، وتفكيك علاقاتها الاجتماعية، واستبدال معاني النفس السامية المفعمة بالقداسة والسمو، وجعلها تنضم إلى عالم النفايات الذي يحكمه منطق الاستهلاك، واللذة الفورية، وبهذا نتصور العالم "بأسره بما في ذلك البشر الذين يسكنونه مجموعة من السلع الاستهلاكية." (باومان، 2016، صفحة 235)

فما آلت إليه العلاقات الإنسانية في عصر السيولة، ما هو إلا نتيجة حتمية للتطور التكنولوجي الهائل، والذي يرمى بالإنسان في عالم الرقمنة أين تتمثل فيه اللاواقعية وتراجع فيه أقانيم الواقع، وتتآكل كل معانيه فيفقد بذلك دلالاته كما يقول بودريار (Jean Baudrillard 1929-2007): "وهكذا ضاع مبدأ الواقع في متاهة المصطنعات (الصور) اللامتناهية المتخيلة والوهمية التي تروجها الميديا وبذلك يفقد الواقع وجوده ويصبح تلك النسخ المصطنعة رقمياً عبر أجهزة الكمبيوتر، عليه فإننا نعيش في عالم "فوق الواقع"، وهو العالم التكنولوجي الافتراضي." (بودريار، 2008، صفحة 18)

2. العلاقات الافتراضية والكوخ الإلكتروني:

فعلى عكس العلاقات الحقيقية المبنية على الالتزامات طويلة المدى، والقائمة على أساس الوجه؛ الذي يعد علامة التواصل المباشر بين الأنا والغير، فإنه العلاقات الافتراضية تبدو أكثر توافقاً مع البنية الحديثة السائلة، والتي تتوعد بإشباع أفضل ورضاء أكبر دون بذل أي مجهول لإنجاحها يقول: "فالعلاقات الافتراضية، على العكس من العلاقات الواقعية يستحيل الدخول والخروج منها، فهي تبدو أنيقة ونظيفة، ومألوفة، وسهلة الاستخدام مقارنة بالعلاقات الواقعية الصامدة الثقيلة." (باومان، 2016، صفحة 32) فالافتراضية تتجاوز كل ما هو ثقيل يعيق الذات ومنه فهي تمثل الحرية في تمامها لأنها تنضوي تحت معنى "ستحصل عليه." (ليفي، 2018، صفحة 15)

وبهذا فقد العالم الإنساني حسه العاطفي، لأن لم يعد هنالك مكان لتلك المشاعر الجياشة والمترجمة على مستوى الكلمات، لأن هذه الأخيرة لم تعد حضاناً للانفعال الذي يلتقطه الوجدان ويعيد صياغته حسب حالات الذات لقد حل محل كل ذلك مجموع من "السمايلات" المنتشرة في الحواسيب والهواتف المحمولة ما يطلق عليه الشباب اليوم الإيموجي "emoji"، وهي كلمة مستعارة من اللغة اليابانية، وتدل على ما يكتب بالصور ("غودار، 2019، صفحة 15) وهذا يعني أن الكلمة أختصرت في الصورة وهي المهيمنة في المجتمعات الاستهلاكية.

الأمر الذي أثر على العلاقات البشرية وأدى إلى سيولتها وقضى على كل المعاني الروحية، وهدمت كل إحالة إلى الأصل أو إلى نزعة تاريخية متجاوزة (متعالية)، مما أدى ذلك إلى زوال الإنسان وموته في الخطاب المعاصر، واندثار أسطوره كما أعلن عن ذلك "ميشال فوكو" في كتابه العمدة "الكلمات والأشياء" قائلاً: "يمكن الرهان أن الإنسان سوف يندثر، مثل وجه من الرمل مرسوم على حد البحر." (فوكو، 1990، صفحة 313)

فأقول الإنسان واندثاره حسب فوكو إنَّما يعني به موت هذا الكائن الواعي، الطموح والمسؤول والفاعل في تاريخه... والذي شكلته المنظومة الحداثية الغربية، فقد كان مجرد اختراع وحدث معرفي مؤقت وأنه سيزول بمجرد

تشظي المشروع الأنثوري، وتصدع ثقافة الحداثة الغربية يقول: "إن كل هذا التشكيل سوف ينقلب الآن، وأن الإنسان هو في طريقه إلى الزوال." (نفسه، صفحة 313)

فالتعايش مع هكذا علاقات يقتضي منا تعلم فن قيادة جديد في ظل الرمال المتحركة والذي أصبح فيه كل شيء يسير بوتيرة سريعة، والمهم فيها تحقيق المتعة الفورية، فبمقدور الفرد انهيارها، إذا لم يشعر بالرضا اتجاهها ويمنع الطرف الآخر من الوصول إليه وبهذا تكون الميزة الفارقة والحاسمة للعلاقات الالكترونية كما يرى باومان هي "الحذف" ويمكنك دائماً أن تضغط "إمح delete" (باومان، 2004، صفحة 16)

فالرقمنة على هذا النحو قد زودت الإنسانية بسرعة في التعامل عبر شبكات التواصل الاجتماعي، وغذت كهف العلاقات الالكترونية، وخففت عنه عبأ المسؤوليات، بالتالي صار إنسان الحداثة السائلة ذات حرة بلا روابط صلبة، ولكن يؤكد باومان أن وسائل التواصل الاجتماعي لها تأثير حاسماً على ثقافة العصر الحديث فهي: كالفتح يصطاد عوطفنا وبقاينا الهشة حيث تسود أنماط علاقات غير مستقرة بلا أعباء أو مسؤوليات، وأطياف أحاسيس تأتي اليوم وتنقضي غداً.

وبهذا تكون المجتمعات على الأنترنت بلا روابط متينة، لأنها تجمعات حسبه بعيدة كل البعد عن المتانة، ناهيك على كونها مؤقتة، ومن السهل الانضمام إليها وتركها في تلك اللحظة التي انضم إليها، وهذا في حالة تعرض الشخص فيها للانزعاج أو المضايقات أو حالة كئيبة، ويشعر بعدم الشهية مما يُقدم في أقرب وقت أو في وقت لاحق بقطع العلاقة. (bauman, 2011, p. 92)

فحقيقة ما توفره هذه المجتمعات من أريحية في التعامل، جعلت الإنسان يعتقد بأن الإله الجديد (الصنمية الالكترونية)، ستقدم له الجنة الموعودة في الأرض من خلال ما يقدمه من خدمات وسهولة في الاتصالات، وهذا ما يلاحظ على مستوى "الرسائل الفورية (غير الشفوية)-البريد الالكتروني- أو رسالة نصية أو شبكات التواصل الاجتماعي بصورة يومية للتواصل مع الأهل أو الأصدقاء." (غرينفيلد، 2017، صفحة 150)

وهكذا يكتسي "التواصل" مدلولاً مغايراً سمته الأساسية "السلعية" فمثلما يتسوق الفرد المستهلك في المعابد الاستهلاكية، ويتصفح المنتجات التسويقية، فيشتري ما يريد، فإنه يفعل الأمر ذاته على الأنترنت "فيتسوق الشركاء على الأنترنت، وهذا أشبه بتصفح كتالوغ تسويقي "من دون الزامك بالشراء"، وبضمان على الصفحة الأولى "برد البضاعة المباعة حالة عدم الرضى عنها." (باومان، 2016، صفحة 104)

وفي تقدير التحليل فإن الإنسان صار سلعة في حد ذاته في يد العقلانية الرقمية، والتي تعمل جاهدت على تسويقه من خلال تسليع الفرد المستهلك أو إعادة تسليعه في كل وقت ليرتفع إلى السلعة القابلة للبيع في الأسواق

الالكترونية(العمل، الصداقة، الزواج ...) وهذا ما أكدت عليه ما "مارجرت تاتشر(Margaret Thatcher)" في كتاباتها أثناء ملاحظتها للمجتمعات الغربية أين انتهت قائلة باختصار: يجب عليك أن تكون جيداً، وحتى تكون جيداً تحتاج إلى المال، للحصول على المال تحتاج لبيع نفسك بسعر جيد مع ربح لائق لا يمكنك أن تكون متسوقاً إلا إذا أصبحت أنت نفسك سلعة والناس على استعداد للشراء وما تحتاجه هو هوية جذابة يمكن بيعها." (bauman, 2011, p. 79)

وبهذا فقد تجاوز الاستهلاك معناه المقتصر على الملذات وإشباع الرغبات، إلى تسويق الذات ولهذا أكد في كتابه استهلاك الحياة Consumer Life بأن "السلعة" اخترقت كل شيء وأعادت تشكيل أبعاد الحياة الاجتماعية لدرجة أن "الذاتية" نفسها أصبحت "سلعة" يتم شراؤها وبيعها في السوق، وعليه صار أفراد المجتمعات الغربية المعاصرة مستهلكون وأصبح المجتمع فيه مندمجاً مع "نموذج المستهلك"، وهو موضة العصر. (bauman, 2007, p. 120)

3-المراقبة وعلاقتها بموت الخصوصية:

إن المراقبة في عالم اليوم لم تعد بذلك الشكل المادي الصارم والمنضبط والخاضع لسلطة المكان، ولم يعد هنالك مراقب واحد يتابع تحركاتك، بل لقد استطاع المراقبون أن يستغلونك في مراقبة نفسك بواسطة طرق لا تدري عنها شيئاً على طريقة "افعلها بنفسك" وهذا يعد نوع من العبودية الطوعية على حد تعبير "باومان" ويظهر بشكل ملحوظ في امتصاص أنظمة المراقبة البيانات الشخصية من الأفراد من دون مقابل (مجانياً) وبشكل دائم واعتيادي من دون تحفظ، وهذه المعلومات كما يقول بومان "يوفرها أناس يستخدمون هواتفهم النقالة، ويتسوقون في المحال التجارية، ويسافرون لقضاء عطلاتهم ويستمتعون بوقتهم في الترفيه عن أنفسهم، ويصفحون الأنترنت، إنما نمرر بطاقتنا بالأجهزة والمكينات، ونعيد إدخال الرقم البريدي، ونظهر بطاقات هويتنا بصورة روتينية آلية من دون تردد." (باومان وليون، 2018، صفحة 36)

ففي عالم ما بعد البنابتيكون نشهد سيولة رهيبة في البيانات الشخصية، تسونامي البيانات على حد تعبير "باومان" الملتقطة من طرف أجهزة المراقبة الجديدة أثناء انتقال الأفراد من مكان لآخر أين يمرون بعشرات الأجهزة الأمنية، التي تقوم بتفتيش حقائبهم وأحذيتهم وملابسهم، بالإضافة إلى منح الأفراد الكثير من البيانات الشخصية بهم (العنوان البريد الالكتروني...) لأجهزة الرقابة التي يمرون بها أثناء استخدامهم بطاقات تذكرة السفر. فكلها أجهزة ترصد وتتعقب الأفراد وتقدم للسلطة البيانات والتفاصيل اللازمة عنهم وتوظف هذه البيانات لخدمة أغراض ومنافع السلطة.

ومن هنا يظهر تواشح ملحوظ بين السلطة والرقابة والتقنية لفرض عبوديتها الطوعية على أفراد المجتمع المعاصر يقول: "فالسلطة يمكن أن تتحرك مع سرعة الإشارة الالكترونية ومن ثم فإن الزمن الذي تتطلبه حركة مكوثاتها الأساسية جرى اختزالها في أنيتها ولحظتها." (باومان، 2016، صفحة 52)

وبناءً على هذا يرى أن تنامي البيانات بفضل التقنيات الجديدة، أتاح للسلطة توفير أسلحة جديدة لم يسمع بها أحد في كل مكان ولا يمكن تصورها في الآونة الأخيرة، وتتسم بقوة الاختراق والتجسس وذاتية الدفع وهي "طائرات من دون طيار" (bauman and donskis, 2013, p. 28) حجم الطائر الطنان أو حجم حشرة صغيرة.

وعلى هذا الأساس يؤكد باومان وصديقه ليونداس دونسكيس بأن الانتشار الواسع واللامرئي للسلطة يعد أحد تجليات الشر السائل، لأن العصر الذي كانت فيه حاجة ماسة وملحة لوجود أجهزة الاستخبارات لنقل المعلومات الشخصية الخاصة بالأفراد، قد انتهى إلى غير رجعة وعليه لابد على "أجهزة الاستخبارات هذه الأيام أن تشعر بالابتهاج وانعدام الحاجة إليها في الآن معاً؛ فما هي وظيفتها في عالم يفصح فيه كل فرد عن أحواله بنفسه؟ حتى وإن لم يكشف الناس عما يفعلون، وعما يفكرون، وكيف أصبحوا أثرياء فإنهم مازالوا على استعداد بأن يكشفوا عن الأصدقاء والمعارف." (باومان ودونسكيس، 2018، صفحة 33)

4. مواقع التواصل الاجتماعي وتمظهرات الشر الناعم:

قديمًا كان الإنسان يخاف من الطبيعة من شروها المتمثلة في الكوارث الطبيعية، لذلك عمد على ترويضها والقضاء على شروها وكان ذلك مع انسان الحداثة الصلبة، ولكن مع القفزة الكبرى التي أحدثها الانسان في العلم والتكنولوجيا خاصة في العصر المعاصر أدى إلى تحوله إلى دمية في يد التقنية تتحكم فيه كيفما تشاء وتنزع منه البيانات الشخصية بطريقة آلية وهذا هو أبرز تجليات الشر الناعم.

فمواقع التواصل الاجتماعي كالفيسبوك وانستغرام وتويتر وغيرها حسب "باومان" وصديقه "ليونداس دونسكيس" تقوم أساساً على النزوع لتطبيق قيم الشر السائل والمميت، فهو عندما يتسلل بحذر تام على المستخدم يجسد ظاهرة "افعل الأمر بنفسك" عندما يدفع مستخدمه دفاعاً إلى فعل جميع الموبقات وهتك كل الأسرار بموجب ضغطهم على أزرار لوحة المفاتيح يقول ليونداس دونسكيس: "ظهر مع الفيسبوك إمكانات الخطر القاتل والشر المميت، فالفيسبوك يجسد ظاهرة "افعل الأمر بنفسك" تجرد من ملا بسك، وأرنا أسرارك، وافعل ذلك بنفسك، وباراتك الحرة وأسعد بما تفعل فعليك أن تفعلها بنفسك، وأنت تتعري يا عزيزي" (السابق، صفحة 32)

وبهذا يكون أحد أهم الأعراض المرتبطة بسيولة الشر، هي "موت الخصوصية" وانتهاكها، وذلك بعرض كافة الأسرار والبوح بها على شبكات التواصل الاجتماعي ليحدث التفاعل البينداتي، أما إذا رفض الفرد القيام بذلك يتم

استبعاده واقصاؤه، من هنا يرى باومان أن جاذبية مواقع التواصل الاجتماعي تتركز في ما يحدث من خلالها من تبادل للمعلومات الخاصة، ونشر الصور الشخصية، حيث يصر الهدف النهائي لمستخدمي هذه المواقع حصداً أكبر قد من تسجيلات الإعجاب أو التعليقات أو إتاحة المعلومات للنشر في نطاق واسع يقول باومان: "يمكن للمستخدمين إعداد ملفاتهم الشخصية، وبيانات الاتصال وغيرها من المعلومات الشخصية، ويمكن للمستخدمين التواصل مع أصدقاء ومع مستخدمين آخرين عبر رسائل خاصة وعامة، إضافة إلى الدردشة الحية." (باومان وليون، 2018، صفحة 46)

وهذا يعني؛ أن وسائل التواصل تعمل على الحد من الخصوصية، ناهيك على أنها تدفعنا للإظهار أنفسنا بمظهر جميل وأنيق أمام كل من يشاهدنا ويشاركنا الفضاء الأزرق، وبالتالي فلا مكان لتغيب الأنا، فحسب باومان ما يحكم الأشياء ههنا منطق الحضور والظهور والإفصاح لا منطق الخفاء والتخلي، لتحكم سيطرة المخيال الفيسبوكي المرغوب على وعينا، مما قد يسبب حالة من الإحباط في حال لم نبلفه.

فإفشاء البيانات السرية وإخراجها من الأسوار الحصينة، إنما ينم عن رغبة المرء الشديدة في حب الظهور ورفع الستار على المهمل والمتجاهل والمهجور لتكون الأنترنت وسيلة لعرض قصص النجاح والمعاناة يقول: "قصة المعاناة تصبح طريق النجاح والاعتراف." (bauman and donskis, 2011, p. 119) ومنه تصبح هذه القصص محط إعجاب فيتم مشاركتها وتداولها على صفحات الفيس بوك وثمة فنحن نشهد اليوم نسخة معدلة من الكوجيطو الديكارتي مثلما يقول: "أنا أظهر للجميع (وأحظى بتسجيل إعجاب ومشاهدة ومتابعة منهم)، إذا فأنا موجود" (باومان وليون، 2018، صفحة 130)

وهكذا تغدو شبكات التواصل الاجتماعي، ماهي إلا نوع من الرقابة السائلة أو كما يسميها باومان "نوع من البنابتكون الذاتي على طريقة "افعلها بنفسك" بنابتكون معدل إلى حد كبير إنه مراقبة من مراقبين." (نفسه، صفحة 84) وعليه فهو تسلط غير مرئي وغير مادي للسلطة وحضورها الكثيف داخل نفوس الأفراد، وهذا نوع من الاستبداد الناعم أو كما يسمه باومان وليوننداس دونيكيس في كتاب الشر السائل ب "الشمولية الناعمة" وهي تلك التي تمارس فيها السلطة أشد أنواع الرقابة، والتحكم على الأفراد، من دون وعي منهم، بل الأدهى والأمر أنهم يسارعون دوماً لمراقبة أنفسهم وتقديم جميع البيانات الخاصة للسلطة، مقابل الظهور العابر في بؤرة الضوء، وثم تكون إمكانية "وجود نزعة شمولية" ناعمة "بمعنى شكل محكم من تزيف الوعي والخيال الذي يرتدي عباءة الديمقراطية الليبرالية بما يسمح باستبعاد الناس والسيطرة عليهم بما في ذلك النفاذ إلى أنفسهم." (باومان ودونسكيس، 2018، صفحة 34)

وهكذا تكون وسائل التواصل الاجتماعي هي أفيون الشعوب الجديدة، كونها تعد نشاط سريري يتداول عليها الفرد المعاصر إلى درجة الإدمان عليها، ولكن بقدر ما توفره من لذة بقدر ما تزيد من تفكيك المجتمعات يقول باومان: "وسائل التواصل الاجتماعي مفيدة، فهي توفر المتعة ولكنها فخ." (باومان، 2017، صفحة 52)

إلى جانب ما تقوم به هذه المواقع من كشف خبايا الذات الحميمة، فبقدر ما يشعر به الإنسان من متعة بقدر ما ينبثق منه شعور بالقهر، والاستياء عندما يكتشف أنه قاد أسرارها إلى ساحة العلن، وهنا يرى "ليونديس دونسكيس" بأن عمل الشبكات الاجتماعية الجديدة مثل الفيس بوك هو تلاشي شظايا من خصوصيك، فهي توهك أنك سوف تلقى الاهتمام في عصر الاستهلاك. (bauman and donskeys, 2013, p. 108)

فتأكل الخصوصية وموتها في عالم الأنترنت، إنما هو ناتج عن انتشار خدمات التواصل وتوفير أدوات التكنولوجيا العالية في التقدم، وكل ذلك يؤدي إلى جر حقوق خصوصيتنا كما يقول باومان: "إلى المذبح يارادتنا أو ربما نعدد الخصوصية باعتبارها ثمنا معقولا للعجائب المعروضة في مقابلها." (باومان وليون، 2018، صفحة 43)

ويربط "زيجمونت باومان" حديثه عن "موت الخصوصية" بمسألة "المجال العام" ويرى أن تحرر خصوصيتنا من مجالها الضيق وكشف أسرارها، أما الملاء سواء على شبكات التواصل الاجتماعي أوفي حصص تلفزيونية تبث فيها تفاصيل الحياة الشخصية لأشهر الفنانين واللاعبين...يؤدي إلى تراجع كبير في القضايا العامة ذات الاهتمام المشترك لتحتل مكانها القضايا الشخصية، ومنه يجد "المجال العام نفسه الآن في غمرات وزحمة غارقة لبياه الخصوصية، وبالتالي يصبح هدفاً لاستمرار الغزو والاحتلال والاستعمار من قبل قوات الخصوصية." (bauman, 2011, p. 89)

فتغول المجال الخاص على حساب العام يزيد من حجم اغتراب الإنسان واستلابه من طرف الأدوات التقنية، والتي جعلته شيء وابتلغته من قبل وجودها المستلب فهذا الواقع كما يقول "هاربرت ماركيز" في كتابه الإنسان ذو البعد الواحد: "لا يعدو أن يكون سوى مرحلة أكثر تقدماً من استلاب الذات (...). والذات المستلبة مبتلعة من قبل وجودها المستلب." (ماركيز، 1988، صفحة 47)

فالتحرر المزعوم قاد إنسان الحداثة السائلة إلى تسويق نفسه، مما زاد من اكتساح المجال الخاص، واتساعه على حساب المجال العام، وهنا يصرح بيتر أوستينوفقائلاً: "هذا بلد حر، سيدتي لدينا الحق في مشاركة -الخاص بك- الخصوصية في الفضاء العام." (bauman, 2011, p. 86) ولكن يبدو أن مظاهر التحرر والاستقلالية المتفشية في المجتمعات المتقدمة، إنما هو شكل من أشكال سيولة الشر، وحضور قوي لسلطة المراقبة في جلسات الاعتراف، وحلقات الاستشفاء من الأمراض، أو حصص تلفزيونية أو إذاعية تبث فيها تفاصيل حياة الأشخاص

المشهورين ليتم استقبالها من طرف ملايين الشغوفين بالتعرف على أسرارها، وعليه فإن تكنولوجيا التجسس والمراقبة الجديدة لن تسمح لإنسان الحداثة السائلة، بأن يكون في منأى عن المشاركة العامة، وثمة تحول مقولة: "أنا أستطيع" إلى "أنا مجبر" وبالتالي يكون الكوجيطو الديكارتي الساري المفعول في الوقت الراهن "أنا أستطيع، إذاً أنا مجبر." (باومان ودونسكيس، 2018، صفحة 35) فهذا الجبر لا يتعارض مع إرادة الأفراد لأنه يتم بطريقة عفوية دون وجود سلطة فوقية تفرض هيمنتها عليهم.

خاتمة:

بناءً على ما سبق نلاحظ أن التطور العلمي والتقني الذي شهده العالم العاصر اليوم قد أصبح خطراً يهدد الكينونة البشرية وينذر بأفول إنسانيتها، لأن العقلانية الرقمية قد غزت العالم واستعمرت حياتنا اليومية، فقضت على خصوصيتنا وفضحت كل أسرارنا.

فالتطور السريع لأدوات التكنولوجيا جعل العالم كله بين أيدينا نرى تفاصيله ونعيش أحداثه ونتفاعل معه من خلال الضغط على زر تسجيل الإعجاب، وهذا يعني أنه لا يحدث شيء في العالم إلا وقد تم العلم به، فمن خلال تسجيل الدخول إلى منصات التواصل الاجتماعي فإن هذه المواقع تتيح للأفراد فرصة التعريف بذاتهم وترويج لها عن طريق ما ينشره الأفراد على صفحاتهم وبهذا اختزلت مشاعرنا في رسالة نصية أو صورة، أو تغريدة أو مقطع فيديو لا يتجاوز العشر ثواني، وكل أفعالنا هذه توهمننا بأننا نشعر بالسعادة، ولكنها في حقيقة الأمر تقود خصوصيتنا نحو الموت لأنها تفضح أسرارنا وترفع ستار التحجب عن حياتنا الحميمة. وهذا ما يعد أحد أهم تجليات الشر الناعم، كون هذا الأخير يعتمد على آلية التقنية في الولوج إلى عمق الذات الإنسانية بغية الكشف كل مفاصلها الداخلية بطريقة ناعمة بعيدة كل البعد عن كل أشكال القمع والاستبداد القديم، لأن الأفراد عن طريق معاملاتهم الالكترونية، فإنهم يساهمون في فضح خصوصيتهم بإرادة منهم.

قائمة المصادر والمراجع:

- Zygmunt Bauman, Leanidas Donskis: 2013. Moral Blindness The Loss of Sensitivity in Liquid Modernity, Cambridge: Polity Press,
- Zygmunt Bauman: 2007. Consuming Life, Cambridge: Polity Press.
- Zygmunt Bauman: 2011. Collateral Damage Social Inequalities in a Global Age, Cambridge: Polity Press.
- إدغار موران: 2010. نحو سياسة حضارية، تر: أحمد العلمي، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط 01.

- إريك فروم: 2010. ثورة الأمل نحو تكنولوجيا مؤسنة، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، مكتبة دار الحكمة للنشر، القاهرة، ط01.
- إلزا غودار: 2019. أنا أوسيلفي إذن أنا موجود : تحولات الأنا في العصر الافتراضي، تر: سعيد بنكراد، المركز الثقافي للكتاب، المغرب، بيروت، ط01.
- بيير ليفي: 2018. عالمنا الافتراضي: ما هو؟ وما علاقته بالواقع؟، تر: رياض الحال، هيئة البحرين للثقافة والآثار، ط01
- جان بودريار: 2008. المصطنع والاصطناع، تر: جوزيف عبد الله، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط01
- زيجمونت باومان وآخرون: قوة الكلمات، 2017. حوارات وأفكار، تر: لطيفة الدليمي، دار المدى، بغداد، ط01.
- زيجمونت باومان ودفيد ليون: 2018. المراقبة السائلة، تر: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط01.
- زيجمونت باومان وليون داس دونسكي: 2018. الشر السائل: العيش مع اللابديل، تر: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط01
- زيجمونت باومان: 2004. العلاقات في زمن الاستهلاك، حياة بلا روابط، تر: فاطمة نصر، إصدارات سطور، ط01.
- زيجمونت باومان: 2016. الحب السائل: عن هشاشة الروابط الإنسانية، تر: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط01.
- زيجمونت باومان: 2016. الحداثة السائلة، تر: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط01
- زيجمونت باومان: 2017. زيجمونت باومان أوالحداثة السائلة: ترجمات خاصة، تر: فريق المجلة كتاب جيل جديد.
- سوزان غرينفيلد: 2017. تغير العقل، تر: إيهاب عبد الرحيم، عالم المعرفة، الكويت، (د، ط).
- ماكس هوركهايمر وثيودور أدورنو: 2006. جدل التنوير: شذرات فلسفية، تر: جورج كتورة، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط01.
- ميشال فوكو: 1990. الكلمات والأشياء، تر: مطاع صفدي وآخرون، مركز الإنماء القومي، بيروت.

○ هاربات ماكيوز: 1988. الإنسان ذو البعد الواحد، تر: جورج طرايشي، منشورات دار الآداب، بيروت،

ط03

○ يورغن هابرماس: 2003. العلم والتقنية كـ "ديولوجيا"، تر: حسن صقر، منشورات الجمل، ألمانيا، ط01.